المقدمة

قامت في غربي إفريقيا حكومات وطنية قبل الإسلام بقرون كانت لها نظمها وحضارتها. ولها علاقات وصلاتها التجارية مع مصر الفرعونية منذ أقدم العصور وكذلك بالفنيقيين بشمال إفريقيا.

إن آثار التنظيم السياسي للممالك السودانية التي قامت في غرب إفريقيا تدل على ظهور أثر حضارة البحر الأبيض المتوسط وحضارة وادي النيل في الحكومات السودانية التي قامت في إفريقيا الغربية. وتأثرها بتلك الحضارات العريقة، فالآثار التي اكتشفت في غربي القارة من الفؤوس والتماثيل المنحوتة والمصنوعة على طريقة الفراعنة. التي لا تزال حتى أيامنا هذه فناً من فنون زخرفة المساكن والفنادق في غربي أفريقيا، في المدن وكذلك اكتشاف الأدوات والأسلحة التي تضم أنواعاً من السكاكين ورؤوس الحراب والنضال كل ذلك يدلنا على مدى تأثير تلك الشعوب بتلك الحضارات العريقة.

وفي أيام قرطاجة كانت قوافل (الغارامانت) تحمل إلى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط: الريش وبيض النعام ومسحوق الذهب من السودان الغربي، وربما معدن القصدير من هضبة باوتشي في نيجيريا. إن هذه المبادلات التي دامت زهاء عدة قرون قبل الميلاد تجعلنا نعتقد بأن المصريين قد أدخلوا إلى إفريقيا الغربية بعض معالم الحضارة.

إن الكتاب الذين تحدثوا عن تأثيرات مصرية وفنيقية في أفريقيا الغربية قد اعتمدوا على وجود اللآلىء الزجاجية القديمة التي وجدت

في داخل ساحل العاج وساحل الذهب وداهومي وفي أفريقيا الاستوائية أيضاً. ومن المستحيل تعيين مصدر وتاريخ هذه اللآلىء التي لم تكتشف كلها في ظروف علمية صرفة. إن هذه اللآلىء هي من بلاد الأبيض المتوسط ولكن يبقي تعيين أحد مصادرها المصرية والفنيقية والرومانية.

ومن علاقة إفريقيا الغربية بمصر في عهد الفراعنة ما ذكره السعدي في تاريخ السودان من أن فرعون موسى عليه السلام الذي حشر السحرة لمناظرة موسى عليه السلام قد استقدم بعض السحرة من مدينة (كوكيا) التي كانت عاصمة لمملكة سنغاي وكانت مشهورة بالسحر في عهد فرعون. وقد آمن بموسى السحرة الذين قدموا من تلك المدينة. وحصلت بعد ذلك هجرات من الشعب اليهود إلى إفريقيا.

وقد يكون هؤلاء السحرة الذين آمنوا بموسى من مدينة (كوكيا) (بِنْتِيَا حالياً) قد عادوا أو ذرياتهم إلى موطنهم الأصلي (إفريقيا الغربية) ففي القرون الأولى التي سبقت عصر الميلاد هرب بعض اليهود خوفاً من الظلم والاضطهاد من إفريقيا الشمالية ولجأوا إلى منطقة واحات (توات)، وبما أنهم من العمال الفنيين والتجار فقد تمكنوا من أن يؤدي دوراً هاماً في تجارة الذهب حتى إن بعضهم قد وصل إلى السودان.

وأهم هجرات اليهود إلى غرب إفريقيا في سنة ١١٥م على أثر ثورة اليهود ضد الحكم الروماني في سيرانيكا. وقد سلك اليهود المهاجرون طريقين مختلفين: أحدهما يسير جنوباً إلى أير عبر النيجر الأوسط، ثم الاتجاه غرباً إلى السنغال وقوتاً. وهناك لحق بهم الفرع الآخر من اليهود الذي كان قد سلك طريقاً غربياً عبر جنوب مراكش وموريتانيا وأدرار[1]. ونتيجة لهذه الهجرات أصبح اليهود موزعين على

---

(١) يراجع تاريخ السودان للسعدي، والممالك الإسلامية في غرب أفريقيا للدكتور زاهر رياض والحضارات الإفريقية: تأليف دنيس يولم.

كل أجزاء شمال إفريقيا. وحافظت الجماعات اليهودية في واحات الصحراء على شخصيتها وأما في السودان الغربي فسرعان ما اختلطوا بالجماعات الكثيرة من السكان السودانيين الوطنيين. وأثر دم هذا الشعب الشرقي المهاجر على رغم اختلاطه بالسكان الأصليين واندماجه فيهم ما زال يرى في بعض شعوب غرب إفريقيا. وربما لا توجد شعوب في السودان الغربي لهم مثل هذا الدم مثل الشعب القولاني الرعاة الذين يحتلون (فوتا) حيث التقت الموجتان اليهوديتان. وهذا الشعب المهاجر من بني إسرائيل كان له دور ومساهمة فعالة في قيام الدول السودانية التي قامت في غربي إفريقيا. ويقال إن التوردب الذين استوطنوا (بلاد فوتا)[1] منهم، والشيخ عثمان فوديو مؤسس الدولة الفلانية الإسلامية في شمال نيجيريا من قبيلة التوردب التي هاجرت من مالي في نهاية القرن الثالث عشر الميلادي متجهة نحو الشرق. والواقع أن تاريخ شعوب غربي إفريقيا هو تاريخ اندماج عبر الأجيال. مما له أثر في قيام حضارات وحكومات وطنية لها سماتها ومميزاتها الحضارية في مكانها وزمانها.

ومن أهم تلك الحكومات التي قامت قبل الإسلام أو بتعبير أدق قبل الميلاد، مملكة سنغاي وهي أقدم مملكة ظهرت في غرب إفريقيا على الإطلاق وتشير جميع المصادر الأجنبية منها والإسلامية إلى أن الممالك السودانية التي قامت في السودان الغربي قبل الإسلام ترجع

---

(١) من هجرات اليهود إلى غرب أفريقيا بعد ظهور الاستعمار في أفريقيا ما حصل في سنة ١٤٨٦م حين صدر أمر ملك البرتغال بنقل اليهود الذين تحت حكمه ويرفضون في الوقت نفسه تغيير عقيدتهم الدينية إلى شاطىء غينيا. وهكذا تم إبعاد آلاف من الأسر الإسرائيلية إلى المستعمرات البرتغالية في أفريقيا حيث استوطنوا هناك وتزوجوا بناء أهل البلاد ولقد نشأت مستعمرة يهودية في جزيرة (سان تومي) وقد امتزج أهلها بالسكان الأصليين وكانوا أول من بذر بذور شجر الكاكاو الذي يكون اليوم ثورة غينيا الأفريقية.

في أصولها إلى مملكة سنغاي أو على الأقل واحدة من تلك الممالك كانت ترجع في أصولها إلى مملكة سنغاي الواقعة إلى الشرق من ثنية نهر النيجر. والتي تعتبر إلى حد كبير أقدم من مملكة كانم وغانا القديمة[1]. وإلى الشمال من نيجير بجوار جمهورية النيجر الحالية كانت أصول ممالك الهوسا قد استقرت فعلاً قبل نهاية الألف الأولى قبل الميلاد. واليوربا في وسط وغرب نيجيريا...

ويتكون شعب سنغاي أصلاً من قبيلتين هما سادة الأرض وسادة المياه أي الزراع والصيادين. وكان موطنهم الأصلي في دندى أسفل النيجر وشمالي بوسا قليلاً.

أصل سنغاي: سنغاي اسم إقليم يقع في أواسط النيجر نسبة إلى قبائل سنغاي المشهورة ويعرفون بأسماء مختلفة منها: «سغى أو سنغى أو صنغى وكذلك سونرى أو سوننكي عند النسبة. وتطلق البامبارة عليهم اسم «كويربورو» وتعني بهذه التسمية «سكان القرى أو أهل الريف أو أهل المدينة» اختلف في أصول قبيلة سنغاي من أين أتى أصلها إلى هذا الموطن.

هناك من يقول إن سنغاي جاءوا أصلاً من مصر، وهم ميالون للسلم. (مثل المصريين) وأنهم سكنوا أولاً في أغديس، حيث وصلتهم هجرات جديدة من مصر زمن البطالمة والرومان. ومع هذه الهجرات وصلت معهم حيوانات مستأنسة وفنون معمارية مصرية مثل البناء باللبن.

وهناك من يقول إنهم أتوا من اليمن ومنهم من يقول: إنهم أتوا من ليبيا منذ عهود سحيقة.

---

(١) انظر المراجع السابقة وسنغاي أقدم من غانا في النشأة لا كأمبراطورية فإن غانة أقدم من سنغاي من حيث نشأة الأمبراطوريات في غرب إفريقيا.

أقول إن ادعاء النسبة إلى الأصول الشرقية بعد ظهور الإسلام أمر مألوف عند كثير من شعوب السودان الغربي والأوسط. وهي الشعوب التي اشتهرت في التاريخ وكونت لها أمبراطوريات واسعة مثل مالي، وارثة غانة، وسنغاي، وارثة مالي، وكذلك أباطرة برنو وغيرهم كما أن ادعاء النسبة إلى البيت العلوي، أمر مألوف ومشهور عند كثير من ملوك السودان. فقد ادعاها ملك غانة وادعاها ملك مالي وارثة غانة. وادعى ملوك برنو أنهم من سلالة سيف بن ذي يزن. كما ادعت القبائل الفلانية أنها من أصول عربية أو سامية أو من ذرية عقبة بن نافع.

كل هذه أساطير غير مبنية على حقائق علمية. إلا أن هذه الادعاءات تلقي ضوءً على أهمية علاقة الشرق الإسلامي بالأمبراطوريات الإسلامية التي قامت في غرب أفريقيا وبأهمية النسبة إلى الشعوب الشرقية وبخاصة إلى النسب العربي لدى شعوب غرب إفريقيا بعد إسلامها.

ونعود إلى شعب سنغاي؛ شعب له مميزات خاصة تمتاز بكثير منها عن شعوب غربي إفريقيا من تلك المميزات: الكرم الزائد ويتهافتون على إكرام الضيف ففي الإمكان الغريب، أن يجلس بينهم سنين يأكل ويشرب ويكرمونه بدون أن يشعر بغربته أو بحاجته. ومنها أن الغريب إذا ساكنهم يحمونه أكثر من حمايتهم لأنفسهم بل لا يسمح جاره أو من أواه لأي إنسان بأذيته وإذا خاصمه قريبه وقف إلى جانب الغريب، فهو يجد الأمان التام في وسطهم وقد يصل بهم الحال في بعض الأوقات إلى توليته عليهم والرضى به إذا أحسوا منه حسن التدبير والحنكة وكرم الأخلاق في المعاملة وبخاصة إذا كان ذا دين ومنها سلامة صدورهم وخلوها من الغش والمكر والخداع لذلك يسهل التغرير بهم وخداعهم لسلامة صدورهم. ومنها حبهم الشديد للدين

ولكل مسلم وصفاء عقيدتهم فلا تجد في مناطقهم عبادة القبور والبناء على الأضرحة أو تقديم القرابين لها فهم سنيون سلفيون في معتقداتهم. ومنها: أنهم ميالون للسلم لا يحبون الحروب ولا يبدأون بالعدوان على أحد فطبعهم في هذا قريب من طبع المصريين هذا بعض من صفاتهم وخصائصهم.

وقد لعب سنغاي دوراً هاماً في تاريخ غربي إفريقيا جنوب الصحراء فأقامت مملكة ذات مقومات ثابتة في النيجر الأوسط على طول مجرى نهر النيجر عاصمتها كوكيا الواقعة شرقي مدينة غاو منذ ما قبل الميلاد. وكانت هناك علاقات تجارية وثيقة تربطهم بمصر وبخاصة في عهد الفراعنة استمرت تلك العلاقات حتى ظهور الإسلام في مصر فوصل الإسلام إليهم عن طريق التجار. وقد بدأت دولة سنغاي دولة صغيرة وتدفقت عليها هجرات من الشرق والشمال استطاعت أن تبسط نفوذها على طول ضفة النيجر الأوسط ثم بدأت هذه الدولة تنمو نمواً مضطرداً. ثم بدأت المرحلة الحاسمة في تاريخها حين أسلم أحد ملوكها المسمى (زاكُسُنْ) في أول القرن الرابع الهجري بعد نقل العاصمة من كوكيا إلى مدينة غاو وقد ذكر السعدي أنه حكم سنغاي قبل الإسلام أربعة عشر ملكاً. أما بعد الإسلام فقد اعتلى عرش مملكة سنغاي من أول سنة ٤٠٠ هـ/ ١٠١٠ م إلى آخر سنة ١٠٠٠ هـ/ ١٥٩٢م ثلاث أسر رئيسية حكموها على التعاقب:

الأسرة الأولى: لقب ملوكها (زا) وعددهم سبعة عشر ملكاً.

الأسرة الثانية: لقب ملوكها (سنى) نسبة إلى سنة النبي ﷺ. وقيل معناها المحرر والله أعلم والأول أرجح وعدد ملوكها تسعة عشر ملكاً.

وقد حولت هذه الأسرة سنغاي من مجرد مملكة إلى امبراطورية شاسعة مترامية الأطراف واستولت على أكثر السودان الغربي، أو كلها ما عدا أطراف قليلة منه.

الأسرة الثالثة: لقب ملوكها (أسكيا) وعدد ملوكها ثمانية أو تسعة ملوك.

وقد وصلت امبراطورية سنغاي على يد مؤسس هذه الأسرة (أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر) إلى قمة ازدهارها وتقدمها ومجدها ورخائها وأمنها إلىٰ حد لم يسبق لها مثيل لا في أفريقيا الغربية وحدها بل في إفريقيا كلها في تلك الأيام. واستولت على جميع إفريقيا الغربية، فانبسط نفوذ أسكيا محمد غرباً إلى المحيط وسيطر على بلاد الماندنجو والفولان. وشمالاً حتى مواطن الطوارق. وامتد نفوذه جنوباً بعد إخضاعه مملكة موشى الوثنية. وشرقاً بلاد هوسا (نيجيريا) وخضعت كلها له. واشتهر عدله وكرمه وقوته في أرجاء السودان الغربي كله وفي شمال إفريقيا أيضاً. وتجاوز مد سنغاي الآفاق التي وصلت إليها امبراطورية مالي في عز مجدها وقوتها. والمسلم به أنه لم تصل دولة من دول غرب إفريقيا بهذا القدر من سرعة الزحف وامتداد النفوذ والسلطان مثل ما وصلت إليه سنغاي وكان أسكيا محمد قد جعل من قوة الجيش الذي نظمه تنظيماً جيداً عدته في الغزو والفتح والجهاد في سبيل الله. فضم إليه فرقاً من فرسان البربر ثم فرقاً أخرى من أبالة الطوارق، وفرقاً من المشاة. استمرت امبراطورية سنغاي حتى سقطت في القرن العاشر الهجري أو في بداية القرن الحادي عشر الهجري تحت وطأة ضربات جيش منصور الذهبي السعدي.

امبراطورية غانة قبل الإسلام وبعدها

وتاريخ امبراطورية غانة هو أولى حلقات التاريخ القومي الإفريقي في غرب إفريقيا وهي من أقدم الأمبراطوريات وأول امبراطورية قامت بالسودان الغربي وهي أقدم من امبراطورية مالي وسنغاي وإن كانت مملكة سنغاي أقدم في التاريخ إلا أنها كانت مملكة صغيرة لم تكن مثل مملكة غانة قبل الإسلام في الشهرة والغلبة.

وذكر ابن خلدون في العبر: أنه لما فتحت إفريقيا المغرب دخل التجار بلاد المغرب فلم يجدوا فيها أعظم من ملوك غانة، كانوا مجاورين للبحر المحيط من جانب الغرب، وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك وحاضرة ملكهم غانة مدينتان على حافتي النيل (أي نهر النيجر) من أعظم مدائن العالم وأكثرها معتمراً.

وتذكر بعض المصادر أن أول حكومة قامت في غانة كانت في القرن الأول الميلادي والله أعلم. فإن المعلومات المتداولة عن فجر تاريخ غانة ليست من الدقة بحيث يمكن الاعتماد عليها. ويقول القاضي محمود كعت في تاريخه (الفتاش) عن ملوك غانة الأوائل: «قد بعد زمانهم ومكانهم علينا ولا يتأتى لمؤرخ في هذا اليوم، أن يأتي بصحة شيء من أمورهم يقطع بها، ولم يتقدم تاريخ فيعتمد عليه»[1].

والكشوفات الأثرية الحديثة التي قام بها علماء الآثار في المنطقة ألقت الكثير من الضوء على التاريخ القومي لتلك الامبراطوريات، مما يؤكد أصالة المصادر الإسلامية ودقة معلوماتها. فإن الأثار التي تم العثور عليها في غانة جاءت مطابقة لأوصاف المؤرخين المسلمين مما أدهش المكتشفين أنفسهم.

والحكم في امبراطورية غانة وما اتصف به ملوكها من النظام الدقيق والعدل وسعة الملك هو أقدم ما عرف من تجارب الحكم الوطني الإفريقي الناجح في تلك البلاد وقد دل ازدهار امبراطورية غانة قبل الإسلام وبعده وبقاؤها إلى القرن الثالث عشر الميلادي على قدرة الإفريقيين السود في تلك الأيام على تدبير شؤونهم بأنفسهم على حسن أسلوب الحكم والنظام.

وقد بلغت هذه الامبراطورية ذروة مجدها وعظمتها واتساعها من القرن التاسع الميلادي إلى منتصف القرن الحادي عشر.

---

(١) الفتاش ص ٤٢.

مؤسسو دولة غانة وأصولهم

أصول سكان غانة هي قبائل السوننك هم مؤسسو دولة غانة التي تحولت إلى امبراطورية وهناك روايات مضطربة في أصلهم وموطنهم الأصلي. والذي أميل إليه من تلك الأقوال أنهم قبيلة متفرعة من قبائل سنغاي هاجروا إلى تلك المنطقة فأنشأوا دولتهم. فإن موطنهم الأصلي هو «التورد» مكان قريب من غاو أو اسم قرية وهو المكان الذي ولد فيه (أسكيا محمد بن أبي بكر) مؤسس الأسرة الثالثة التي حكمت سنغاي ويقول القاضي محمود كعت في وصف أسكيا وبيان مكان ولادته: (ومنّ الله علينا بأن أظهر لنا في زماننا هذا الإمام الصالح الخليفة العادل والسلطان الغالب والمنصور القائم أسكيا الحاج محمد بن أبي بكر التوردى أصلاً الكوكوي داراً ومسكناً) (فالتورد) مكان ولادته ونشأته والكعت في تاريخه ينسب الأعيان من العلماء والملوك دائماً كلاً إلى بلده مكان ولادته وكذلك يفعل السعدي في تاريخه، فأهل غانة القدماء من هذا المكان هاجروا وهم يرجعون إلى قبيلة سنغاي في أصولهم. فلذلك نجد في بعض المصادر أنهم يسمون أنفسهم (التورود أو التوروث) وأنهم جاءوا أصلاً من المشرق، وقد مرت الرواية التي تدعى بأن أصول قبائل سنغاي قدموا من المشرق من مصر في هجرتين إلى أغديس ثم تفرقوا من هناك والله أعلم بصحة ذلك.

وفي القرن الثالث عشر الميلادي سقطت غانة نهائياً تحت ضربات المادنجو حيث احتلها جيوش الدولة النامية الجديدة دولة المادنجو وفي سنة ١٢٤٠ م/٦٣٨ هـ نجح ماري جاطة في تدمير ما بقي من كومبي صالح عاصمة غانة التي يقال إنها تأسست سنة ٣٠٠ م وبذلك انتهت امبراطورية غانة وقام ماري جاطة بتأسيس مملكة مالي.

امبراطورية مالي الإسلامية

مر تاريخ مالي بثلاثة أطوار حيث حكمها ملوك من ثلاث أسر حكموها على التعاقب.

الأسرة الأولى: أسرة التروريين وأشهر ملوكها (منسانوفين تروورا).

الأسرة الثانية: أسرة (الكوناتيين) وأشهر ملوكها جورماندانا كوناتي المعروف في المصادر الإسلامية باسم (برمندان) وكانت مالي مملكة صغيرة تحت حكم الأسرتين.

الثالثة: أسرة (كيتا) وأشهر ملوكها: سنديانة أوماري جاظة الذي حكم مالي من سنة ٦٢٩ ـ ٦٥٣ هـ/ ١٢٣٠ ـ ١٢٥٥م ويعتبر المؤسسس الحقيقي لامبراطورية مالي.

وأشهر منه منسى موسى ٧١٢ ـ ٧٣٨ هـ بلغت مالي في عهده الذروة في الإدارة والسياسة والاقتصاد والاتساع وذاعت شهرة مالي بعد حجه في العالم.

ثم أخوه منسى سليمان وفي عهده زار ابن بطوطة مالي.

ومرت مالي تحت حكم هؤلاء الملوك بثلاثة أدوار:

١ ـ دور التأسيس يمتد بين ١٢٢٥ و ١٤٥٥م وفي هذا الدور امتد حكم مالي على كل مملكة غانة القديمة التي ألحقت بمالي نهائياً سنة ١٢٤٠ م كما بدأت في التوسع باتجاه الشرق وفي فوتاجالون.

٢ ـ دور الازدهار والقوة وقد استمرت طيلة القرن الرابع عشر الميلادي تقريباً. فعم الأمن كل جهات الامبراطورية وازدهر اقتصادها وبنيت المراكز الثقافية في مدنها واستقدم العلماء من أنحاء العالم الإسلامي.

وبعد توقف الفتوحات التي قام بها ملوك مالي الأقوياء انصب اهتمام بعض ملوك مالي قبل منسى موسى وأشهرهم بكارى الثاني على

اختراق المحيط الأطلسي وذكر العمري في المسالك نقلاً عمن قابل منسى موسى أثناء حجه، يقول: إن هذه المحاولة التي جرت مرتين بأمر من بكاري وتحت إشرافه كلفت الخزينة كثيراً من الأموال وأكثر من ثلاثمائة سفينة.

وفي هذه الفترة ربطت مالي علاقات دبلوماسية نشطة وثقافية مع مصر والمغرب كما اتصلت لأول مرة بالبرتغاليين.

٣ ـ دور الضعف والانهيار وانتهت باستيلاء مملكة سنغاي عليها وبسطت نفوذها على أراضيها جميعها وأقامت على أنقاضها امبراطورية جديدة واسعة فاقت مالي في ازدهارها ورخائها واتساع رقعتها وفي تنظيمها وفي جميع جوانب الحياة. ولله الأمر من قبل ومن بعد وله البقاء وحده سبحانه وتعالى.

من ص ٩/ ١٢